النهار
الثلاثاء 28-05-2024 العدد 28297

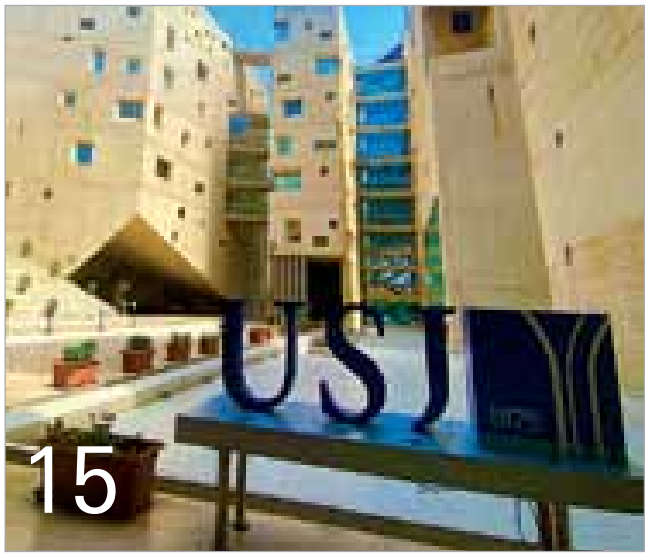

قضايا
150 عاماً
لمسيرة تحريرية
للجامعة اليسوعية

النهار
الثلاثاء 28-05-2024 العدد 28297
15

150عامًا انقضت على مسيرة تحريريّة لم تنتهِ بعد!

الأب صلاح أبوجوده اليسوعيّ
أستاذ في جامعة القديس يوسف

في 30 نيسان 2024، أعطى رئيس جامعة القديس يوسف، الأب سليم دكاش اليسوعيّ، إشارة البدء باحتفالات مرور 150 عامًا على تأسيس الجامعة المذكورة. يشهد تاريخ هذه المؤسّسة على قدرتها الكبيرة في الحفاظ على مسار تحقيق رسالتها، بالرغم من العقبات الكثيرة التي اعترضتها وتعترضها من داخلها ومن خارجها. وبغية توضيح هذه الحيويّة الاستثنائيّة، نتوقّف على التحوّل الهائل الذي عرفته المؤسّسة في العام 1975، إبّان الحرب التي بدأت تمزّق لبنان.

في ظلّ إدارة رئيس عملاق هو الأب جان دوكرويه، عرفت الجامعة تغييرات أساسيّة. يتّصل الأمر، كما كتب الأب دوكرويه "بتأسيس إدارة مركزيّة لما كان سابقًا مجرّد اتّحاد كليّات... وإعطاء الجامعة استقلاليّة إداريّة وماليّة وأكاديميّة كاملة، في الوقت عينه، إزاء الجامعات الفرنسيّة والرهبانيّة اليسوعيّة، على نحوٍ يمكّن من إنشاء بُنى مشاركة كاملة تسمح للأساتذة اللبنانيّين أن يضطّلعوا بتزايد بمسؤوليّاتهم".

جعل هذا التحوّل الكبير من جامعة القدّيس يوسف "جامعة خاصّة لبنانيّة" كما تنصّ عليه شرعتها التي أُقرّت هي أيضًا في العام 1975، تُعنى بتقديم تنشئة لطلبتها "تتيح لهم أن يمارسوا نشاطًا مفيدًا في المجتمع الذي ينتمون إليه"، وهذه مهمّة وظيفيّة تندرج "في سياق خدمة أعمق مدى، تُشكّل الرسالة الثقافيّة للجامعة، وتجعلها في خدمة الترقّي الإنسانيّ".

لا شكّ في أنّ التغيير الذي طال الناحية الإداريّة، وبوجه خاصّ اتّباع المركزيّة، يبدو مبرّرًا. فإنّ تطوّر المجتمع المحليّ على مختلف الصعد الاقتصاديّة والثقافيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، حثّ اليسوعيّين، وجلّهم من الأوروبيّين، ولا سيّما من الفرنسيّين، إلى إنشاء مؤسّسات جامعيّة مستقلّة، في الغالب بالتعاون مع جامعات فرنسيّة أو مُلحقة بها. لكن بات من الضروريّ إنشاء إدارة مركزيّة واحدة لمختلف هذه المؤسّسات، لكي تؤمّن تعاونًا أفضل بين بعضها بعضًا، وتكاملاً، وتخطيطًا مشتركًا منسجمًا وفعّالاً على المستوى العمليّ والاستراتيجيّ.

غير أنّ السؤال يُطرح بشأن صوابية التغيير المتّصل باستقلاليّة الجامعة إزاء الجامعات الفرنسيّة والرهبانيّة اليسوعيّة على السواء. أفلم يكن التخلّي عن وصاية المؤسّسات الفرنسيّة خسارة منافع تلك مؤسّسات ومنها صيتها العالميّ؟ ومن ثمّ، إنّ تأكيد الهويّة اللبنانيّة للجامعة، أو لبنتها، هل كان ليضمن الحفاظ على المستوى العلميّ نفسه؟ وفوق كلّ ذلك، فما كان موضع تساؤل كبير ولا يزال إلى الآن فهو استقلاليّة الجامعة إزاء سلطة الرهبانيّة اليسوعيّة. فما كان ليبقى من هويّة الجامعة اليسوعيّة في هذه الحالة؟ لقد أثبت مسار الجامعة منذ العام 1975 إلى اليوم صوابيّة هذه القرارات، إذ فرضت الجامعة نفسها محليًا ودوليًا بفضل جودة تعليمها. فضلاً أنّ أنّها تميّزت ولا تزال بانخراطها في الحياة الاجتماعيّة والوطنيّة بفعاليّة وجرأة.

ولكن ما تراه الدافع الكامن وراء هذا القرار الشجاع الذي يكشف عن ثقة كبيرة باللبنانيّين، وعزم على الانخراط الكامل في المجتمع المحليّ، مع اعتماد مبدأ الاستقلاليّة تجاه سلطة الرهبانيّة اليسوعيّة؟ بالطبع، ليس هذا القرار نتيجة مصادفات التاريخ، ولا ثمرة مواقف ظرفيّة عشوائيّة وفجائيّة. بل هو ينتج من تلاقٍ حيويّ بين لاهوت تطوّريّ متأصّل في الوحي التاريخيّ، وإنسانويّة متشبّعة من روح التجرّد التي تلهمها الروحانيّة الإغناطيّة. فالوحي التاريخيّ يعني أنّ الله يسير مع شعبه، وفي أثناء هذه المسيرة يكشف عن مشيئته وعن سرّ الإنسان والحياة تدريجيًا من خلال أحداث الحياة والحياة الروحيّة. لذا، يصبح اللاهوت في ورشة نموّ مستمرّة، ومنفتحًا على تطوّرات الحياة نفسها. فكان تلاقي اللاهوت التطوريّ والإنسانويّة على قيمة الإنسان وكرامته التي لا تمسّ، وحريّته. كما أصبحت مصالحة العقل والإيمان ممكنة، ومصالحة الإيمان والعلم، كما اكتساب البحث عن الحقيقة والعدالة بُعدًا غير مسبوق. إلاّ أنّ هذه الخلفيّة التي لا تُترجم على أرض الواقع من دون حالات شدّ في بعض الأحيان صاخبة، بين الليبراليّين والمحافظين داخل الرهبانيّة نفسها.

في العام 1975، أدّت مبادرة الأب دوكرويه إلى تلافي إغلاق الجامعة، وهو ميل ساد عددًا غير قليل من الرهبان اليسوعيّين وقد استولى عليهم اليأس من وضع البلاد. شهدت هذه الخطوة على إيمان ثابت في لبنان واللبنانيّين، وجسّدت قيمَ جامعةٍ قائمة على مبادئ علمانيّة سليمة وصحيّة، تؤثر الحريّة الأكاديميّة وحريّة البحث. وقد أتاحت هذه الرؤية للباحثين والأساتذة التوسّع في فهم الأفكار ومشاركة معارفهم واستقبال وجهات النظر المختلفة، عاكسةً بالتالي غنى العالم المتنوّع وتعقيداته، من دون خوف من رقابة السلطة الدينيّة وعقابها.

> **أصبح تمثيل الطلاّب والموظّفين والأساتذة ممكنًا في وسط اتّخاذ القرارات، وأصبح الوعي لاحتياجات الجامعة ومصالحها أشدّ**

كما أنّ هذه الاستقلاليّة عن السلطة الدينيّة التي تكشف أيضًا عن الإيمان بالعلمانيّين وقدراتهم، فتحت الطريق أمام إمكانيّة تطوّر حياة ديموقراطيّة ديناميّة وثريّة في الجامعة. فأصبح تمثيل الطلاّب والموظّفين والأساتذة ممكنًا في وسط اتّخاذ القرارات، وأصبح الوعي لاحتياجات الجامعة ومصالحها أشدّ. إضافة إلى أنّ هذا الواقع يضمن أن تكون معايير الكفايات العلميّة والديموقراطيّة دليل اختيار العمداء والمدراء، بعيدًا عن الممارسات الدينيّة التقليديّة التي تحصر القرار في نهاية الأمر بقناعات الرئيس، وحيث يبقى ثمّة حذر من إسناد المسؤوليّات بالكامل إلى العلمانيّين، لا خوفًا من إضعاف السلطة الأبويّة الدينيّة فحسب، بل بسبب نظرة تقليديّة دونيّة إلى العلمانيّين، بل ولعلّها نظرة إلى العلمانيّين وكأنّهم قاصرون.

ولكن لنتحاش الوهم. فالجامعة لا تزال في منتصف الطريق نحو مهمّتها التحريريّة؛ ولا يزال الإطار الطائفيّ المتضارب يعيق تطوّرها المنشود، كما لا يزال يفعل الخوف من «اللبننة» و«العلمنة» الشاملة فعله. عسى أن يبدّد نور الفكر الليبراليّ الفكر الأبويّ الضيّق!